مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية المجلد الثاني رمضان ١٣٩٩ هـ
آب ١٩٧٩ م
من ٤٢ الى ٥٠

ريتشارد بيرتون
والأمة العربية

الدكتور : ياسين صالحاني المعط
كلية الآداب

ان الرحالة المستشرق
الانكليزي ريتشارد برتون الذي لم يسمع
به كثير من العرب قد أمضى معظم حياته
لدراسة العرب وأدبهم والاسلام ، واستكشاف المناطق
غير المعروفة من الوطن العربي بالنسبة للعالم الخارجي .
وتلم هذه الدراسة بمعظم تلك الجوانب الغامضة من حياة هذه
الشخصية الانكليزية الهامة .

ولد برتون عام ١٨٢١ في مقاطعة هارتفود شاير قرب لندن . كان برتون نشيطاً منذ طفولته وكان امله ان يلتحق بالجيش الانكليزي في الهند علماً ان والده كان يرغب ان يجعل منه رجل كنيسة . وبعد ان فشل برتون في جامعة اكسفورد وفصل منها في نهاية العام الاول كان له ما يرغب وهو ان التحق بالجيش الانكليزي في الهند عام ١٨٤٢ .

كانت هذه نقطة تحول هامة في حياة هذا المستشرق . فقد ابتدأت مواهبة الدفينة بالظهور والتبلور . فمنذ ذلك التاريخ ابتدأ برتون الاديب وبرتون الجندي وبرتون الرحالة وبرتون الدبلوماسي وبرتون الشاعر وبرتون الناقد بالظهور . فقد لمع في كل هذه المجالات واستطاع خلال فترة قصيرة ان يكون لنفسه اسماً لا معًا . لقد كان برتون يختلف عن كثير من الناس في مجتمعه آنذاك بأنه كان ذا شخصية قوية يرفض العادات والتقاليد ولا يؤمن الا بما يقتنع به . وقد انعكس هذا الامر بشكل واضح في كتاباته وتصريحاته مما دعا كثيرًا من الناس الى ان يقفوا منه موقف العداء ، وقليل من الناس ، وغالبًا أولئك الذين عرفوا برتون عن كثب او شخصيًا ، كانوا لا يكنون له اي حب او احترام . وكان الوضع كذلك حتى في علاقاته مع رؤسائه في الحكومة مما دعى المسؤولين في وزارة الخارجية الى تعيينه في قنصليات كان الهدف منها الحد من نشاط هذا الانسان وتفادي المشاكل التي قد تنجم عن صراحته اللامتناهية وعن شخصيته القوية . ولذا بينما سمت الحكومة البريطانية الى شهرة بعض المستشرقين الذين واكبوها في سيولها امثال (لورانس العرب) سمت في الوقت نفسه الى طمس اسم برتون بعد وفاته . ولم يبدأ الاهتمام بهذا الانسان الفذ بشكل جاد الا في السنوات العشر الاخيرة ، حين ادركت بريطانيا اهمية هذا المستشرق وانجازاته ولذا ابتدأت تكدس الجهود لدراسة حياته واعماله واعادة طباعة بعض كتبه .

لقد كان برتون يتمتع بكثير من المواهب الخاصة التي جعلت ترحاله واستكشافاته في الشرق انجح واسهل عليه من كثير من المستشرقين . فأول هذه المواهب قدرته الخارقة على تعلم اللغات . فقد جزم مؤرخو حياته انه اتقن خلال حياته تسعًا وعشرين لغة كان يتحدث بها بطلاقة واحدى عشرة منها كان يتقنها الى درجة الترجمة والتأليف فيها ومنها اللغة العربية والبرتغالية والفرنسية واللاتينية والهندية . وقد سجل مؤرخو حياته انه كان باستطاعة برتون ان يتعلم اي لغة يشاء خلال مدة اقصاها ثلاثة اشهر . والموهبة الاخرى ، ان استطعنا اعتبارها موهبة ، هي ملامح وجهه القاسية ، الشرقية التعابير والتي كانت تخفي تمامًا اصله وعرقه . فقد كان صلب الملامح – كث الشعر اسوده ، ذاعينين ثاقبتين ، فارع الطول ، عريض المنكبين . كان كل من يراه لاول مرة يتصوره غجريًا او من اصل عربي بدوي . وهذه الخصائص ساعدته

بشكل جيد على ممارسة اخب الهوايات اليه – الا وهي التنكر بزي الأمم الشرقية والاختلاط بالناس وكأنه واحد منهم .

فقد كان اذا نوى السفر او الترحال في بلد ما ، يتعلم لغته اولا ومن ثم يتنكر بزي اهله وينخرط بينهم مستسقيا المعلومات عنهم ومنهم مباشرة . ولذا فقد كانت المعلومات التي لديه عن العالم الشرقي ذات طابع خاص يختلف عما حصل عليه غيره من المستشرقين . فقد استطاع برتون الوصول الى اعماق هذه الشعوب والتعرف على عادات وتقاليد قلما وصل اليها اجنبي غيره .

وبتنكره ذاك تجاوز برتون الحاجز الطبيعي الذي ينشأ عادة بين الاوربي والشرقي عندما يلتقي الاثنان في الشرق. فترى الاول لا يستطيع ان يتأقلم مع طبائع الشرق وفي الوقت نفسه لا يستطيع الشرقي الا ان يخرج عن طبائعة العادية ليعطي صورة افضل عن نفسه للزائر الاجنبي، وبذلك تضيع الحقائق بين ترفع الاول وتصنع الثاني .

والموهبة الثالثة في حياة برتون كانت الغزارة في الكتابة . فقد الف ما ينوف عن الخمسين كتابا في حوالي سبعين مجلدا ضخما . ومع ان برتون كان غزير الكتابة كانت معظم كتبه خاسرة تجاريا وقليل منها ما حاز شهرة او شعبية تذكر . وذلك يعود لاسباب فنية في غالب الاحيان . فلم يكن برتون يتقن فن التحرير اولا ومن ثم كان يدون في كتبه كل المعلومات التي يعرفها عن موضوع الكتاب ، ولذلك ، بينما كانت معظم كتبه مراجع هامة للمختصين كانت هذه الكتب خليطاً من المعلومات بالنسبة لباقي القراء ومبعثا للملل . والجدير بالذكر هنا ان اهم ثلاثة كتب اشتهرت لبرتون وحفظت اسمه على السن الناس كان لها علاقة مباشرة بالعرب والمسلمين . الاول هو كتابة عن الحج واسمه **خبرة شخصية في الحج الى المدينة ومكة** وهو من افضل ما كتب برتون في ادب الرحلات . والثاني كتاب اسمه **القصيدة** وهو من افضل ما كتب برتون في مجال الشعر . والثالث ترجمته لكتاب **الف ليلة وليلة** . وهذا الاخير ليس فقط من افضل ما ترجمه برتون على الاطلاق ولكن افضل ترجمة لهذا الكتاب ظهرت في الانكليزية حتى الآن . ولو علمنا ان هذا الكتاب ترجم الى الانكليزية في القرن التاسع عشر ما لا يقل عن ست مرات كانت ترجمة برتون الاخيرة منها لادركنا مدى روعة هذه الترجمة ومستواها الجيد .

لم تقتصر علاقة برتون بالوطن العربي على مجال الأدب والكتابة بل شملت المجال العملي والدبلوماسي ايضاً . فكما ان افضل كتاباته كانت تلك التي تتحدث عن الوطن العربي كذلك كان الامر بالنسبة لاستكشافاته وحياته الدبلوماسية . لقد جاب برتون العالم اجمع بين الهند شرقاً والمكسيك والبرازيل غرباً وقام باستكشافات في معظم هذه البلدان كانت تتوج

بتأليف كتب عنهـــا ولكن دون اي شك تبقى افضل وأشهر رحلة له هي تلك الـتي قـام بها الى الديار المقدسة الاسلامية . فقد تنكر برتون عام١٨٥٣ بزي شرقي ورافق قوافل الحج الى مكة والمدينة وعاد ليؤلف كتابا بثلاثة مجلدات كبـيرة عن تلك الرحـــلة . وقد ذكر Augustus Ralli مؤلف كتاب المسيحيون في مكة الذي لخص فيه رحلات اربع عشرة شخصية مسيحية اوروبية زارت مكة والمدينة ، تسع منها قبل برتون واربع بعده ، افرحلة برتون الى الحج وكتابه عنه كان افضل ما كتب في هذا المجال وأمتعـه ، علما ان كتاب برتون هذا بقي زمناً طويلا مرجعا اساسيا عن الديار المقدسة الاسلامية .

وفي مجال الاســـتكشافات ايضاً قام برتون برحلتين الى مدائن صالح في عـــام ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، بالاتفاق مع الخديوي اسماعيل الاول للتنقيب عن الذهب . وقد قام برتون بدراسة المنطقة طبوغرافياً وكذلك مسح المنطقة ودرس تضاريسها وآثارها وطرقها القديمة . وقد قالت مدام برودي في كتابها عن حياة برتون « ان رحلتي برتون الى مدائن صالح ، والثانية منها خاصة ، ذات اهمية جغرافية كبيرة ، بل هي اكبر من اهمية رحلته الى المدينة ومكة التي كانت محفوفة بالاخطار » وقد ألف برتون عن رحلتي مدائن صالح كتابين بثلاثـة مجلدات . وكذلك في عالم الاستكشافات قام برتون عندما كان قنصلا في دمشق برحلات الى حماة وتدمر وبصرى وفلسطين دوّن تفاصيلها في كتابه سورية غير المكتشفة الذي صدر في مجلدين عام ١٨٧٢ .

وعلى المستوى الدبلوماسي أو كل برتون اربع قنصليات في حياته كلها في بقاع متباعدة من العالم . الاولى كانت في غرب افريقيا في مدينة Fernando po والثانية في البرازيل والثالثة في دمشق والرابعة في مدينة Treste في ايطاليا . وكانت قنصلية دمشق افضلها كلها وأحبها الى قلب برتون الذي كان دائماً يعشق الشرق وعالمه الساحر وطابعه الخاص .

ومن الشرق بشكل خاص كان برتون يحن الى الصحراء واهلها وعالمها الرائع الخاص، ففي كتابه عن الحج ذكر برتون انه عندما كان يضطر للبقاء في مدينة ما كالاسكندرية او القاهرة يضيع الوقت انتظاراً لمواعيد سير القوافل كانت تسيطر على نفسه الكآبة والملل . فقد كان برتون يكره المدنية ولاسيما المدنية الغربية التي كانت بالنسبة اليه تمثل الخيانة والمبادىء الزائفة . كان برتون يؤمن ان عالم الصحراء هو عالم البساطة والصدق والصفاء في كل نواحي الحياة . كان يعتبر الصحراء عالم الرجال وان السفر في الصحراء تحد واختبار حقيقيين لقدرات وقوة الرجال . حتى ان اسلوبه في كتابه عن الحج كان يبلغ اقصى درجات الابداع والروعة

عندما كان يصف الصحراء وعالمها الخاص ومشاق السفر فيها على ظهور الجمال تحت اشعة الشمس المحرقة . ولعل افضل تعبير صدر عن برتون في حبه للصحراء هو ذلك الذي نراه في اول فقرة من مطلع كتابه الاول عن مدائن صالح ، فلقد كانت هذه الرحلة الاولى لبرتون الى الشرق بعد غياب ست سنوات قضاها في ايطاليا بعد ان غادر دمشق ، ففي هذه الافتتاحية يقول برتون :

> واخيراً ، لقد شاء القدر ان يطلق سراحي من اوروبا وسجون حضارتها الزائفة ، ولينعش جسدي وفكري بدراسة الطبيعة في أروع وأنبل حالاتها في العراء . ومرة اخرى تتاح لي الفرصة لأن امتع نظري برؤية الصحراء الرائعة ، ولأن استنشق هواءها العذب النقي وأن أتأمل سماءها الصافية التي تكشف عن بعد نجوماً وكواكب حمراء تشتعل في اطراف الافق .

لقد تسلم برتون قنصلية دمشق في تشرين الاول عام ١٨٦٩ وكان يبني الآمال في ان يكون سعيداً في عمله في هذه القنصلية وان تكون بداية سعيدة لحياة طويلة في الشرق . وكان في الوقت نفسه يعتبرها الخطوة الاولى في سلم المجد له في الشرق اذ كان يطمح في ان يؤدي نجاحه في دمشق الى ترقيته ومن ثم تسلمه قنصلية طهران ثم قنصلية القسطنطينية . وقد عبرت زوجته عن هذه الآمال في كتابها الذي ألفته عن حياة زوجها حين قالت « لقد كانت حياتنا وطموحاتنا في تصاعد مستمر في ذلك الوقت . وكان زوجي قد وعد بقنصلية طهران او مراكش او القسطنطينية فيما لو نجح في قنصلية دمشق .» ولكن لم تكن الامور بالنسبة لبرتون في دمشق كما كان يهوى . فبينما كان يأمل ان تكون قنصلية دمشق الخطوة الاولى في سلم المجد كانت تلك الصخرة القاسية التي تحطمت عليها كل آماله . فبالرغم من ان برتون شغل منصب قنصل في اربع قنصليات مختلفة وقضى ما لا يقل عن ثلث حياته في السلك الدبلوماسي يجمع مؤرخو حياته على انه كان يفتقر الى الدبلوماسية والحنكة الضرورية للدبلوماسيين والسياسيين ومن جراء هذا النقص اصطدم برتون مع الجالية اليهودية في دمشق لاختلافه معهم فيما يتعلق بتحصيل الديون التي كانت لهم مع الفلاحين الفقراء . ولذا فقد عمل هؤلاء عن طريق اليهود ذوي النفوذ في انكلترا الى الضغط على الحكومة البريطانية التي ما كان منها الا ان سحبت برتون من دمشق عام ١٨٧١ ودفنته في قنصلية عديمة الاهمية في مدينة ترستي في ايطاليا .

لقد بلغ تعداد الكتب التي الفها وترجمها برتون عن الوطن العربي والعرب وتراثهم تسعة مؤلفات في ثماني وعشرين مجلدا فبالاضافة الى الكتب التي ذكرناها سابقًا هناك ثلاثة

كتب اخرى اولها هو ترجمته لكتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ محمد بن محمد النفزاوي من تونس . وهذا الكتاب الذي كان محط نقاش ادبي في صحفنا في العام الماضي ، كتاب جنسي رخيص ، ربما لفت انتباه القراء الانكليز في نهاية القرن التاسع عشر - اذ ان برتون ترجمه من الفرنسية عام ١٨٨٦ - لندارة الكتب الجيدة آنذاك في مجال الدراسات الجنسية . والكتابان الآخران هما اليهود، والاسلام ، وكلاهما لم ينشر الا بعد وفاة برتون بثمانية اعوام وقد نشر هذان الكتابان الصغيران مع كتاب ثالث اسمه الفجر في مجلد واحد عام ١٨٩٨ ، ولم يتكرر طبع هذا الكتاب ابدا لحساسية موضوعة ، ولا نه كان مبعث النقمة على برتون من قبل اغلبية القراء الانكليز فالاول الفه برتون بعد ان عاد من دمشق وترك عمله القنصلي فيها ، صب فيه برتون جام غضبه على اليهود بشكل عام ، مبينا مساوئهم وخصالهم العرقية الخبيثة بشكل جعل الكتاب مبعث عار وخجل لليهود ومن تعاطف معهم. ولم يكتف برتون ان كشف النقاب عن خصالهم العرقية السيئة ، بل نوه الى نفوذهم الكبير في العالم ، وحذر في كتابه هذا من الخطر اليهودي على العالم من جراء سيطرتهم على رؤوس الاموال العالمية ، وقال انه ان لم تسع الدول الكبيرة للحد من تمادي اليهود في السيطرة على مراكز النفوذ في العالم سيصل الامر بهم « لان يستطيع بعض الرأسماليين الماكرين منهم عبر نفوذهم المالي الضخم ان يهددوا عروشا ويحددوا مصير امم ببرقيات لاسلكية » .لقد قال برتون هذا الكلام من السبعينات من القرن الماضي وهذا ما حصل لفلسطين بعد سبعين عاماً تقريبا من تنبؤاته . اما كتاب برتون عن الاسلام فقد اعتبره كثير من الانكليز تهجما على المسيحية ودفاعاً عن الاسلام . وكان برتون يحاول في هذا الكتاب ان يبرهن لابناء امته ان الاسلام دين حقيقي الهي كالمسيحية واليهودية . وكذلك يحاول ان يثبت لهم ويقنعهم ان محمد ﷺ نبي حقيقي مرسل كموسى والمسيح عليهما السلام . ولهذه الاسباب كانت نتيجة نشر هذا الكتاب ان كسب برتون نقمة الكثير من اليهود والمسيحيين في بريطانيا ولم يتكرر طبع هذا الكتاب ابدا .

وبالرغم من هواقفه الغريبة ، المغايرة لمواقف اقرانه المستشرقين تجاه الشعب العربي وحبه الصادق لهذه الامة لم يكن برتون في الحقيقة يختلف كثيرا عن اي منهم فيما يتعلق بولائه وابعاد اهتماماته . فولاؤه الاول كان لامته واهتماماته بهذه المنطقة كانت لا تخلو من العنصر الاستعماري . فقد كان يطمح في انشاء خط حديدي يصل البحر الابيض المتوسط بالهند المستعمرة البريطانية الاولى ، مارا بمدينة تدمر . وكانت اهتمامات برتون الاستعمارية في العالم ككل وفي الوطن العربي خاصة مآرب تجارية لا استيطانية تأخذ طابع الاحتلال التام ، فقد كان

يؤمن انه من الافضل لبريطانيا لو تركت هذه الشعوب وشأنها وامنت لنفسهـــا فقط خطوط النقل البحري للتجارة بوضع يدها على النقاط التجارية الاستراتيجية على طول الخطوط التجارية البحرية العالمية . وان اختلف برتون عن غيره من المستشرقين فانـه يختلف في انـه كان منصفًا نوعا ما للعرب ، فمن كل الشعوب التي عرفها بين الهند والمكسيك لم يعجب بشعب اعجابه بالشعب العربي وفي اكثر من مناسبة في كتبه المختلفة اشاد برتون بالخصال العربية الطيبة والعنصر العربي الجيد ، وبين امكانات هذه الامة وقدرات ابنائها التي لا حدود لها . فبرتون الذي جاب العالم من شرقه الى غربه وعاش بـين شعوبه كواحد من ابنائهـــا صرح ، وفي عصر كان الاوربيون ، ولاسيما الانكليز ، يعتبرون انـه لا وجود لأمـــة خارج اوربا تستحق الذكر والاحترام ، في مقدمـــة كتابه .

سورية غير المكتشفة قائلًا :

اسمحوا لي ان احاول ان انهي كلمتي هذه بان اعبر لاولئك الذين يتبرعون لصندوق استكشاف فلسطين ان سورية التي تقع الى الشمال من فلسطين ، بلد عريق جدا في اكثر من ناحية — اما جغرافيا وتكنولوجيا فهذا البلد يعتبر حديثا جدا . سورية بلد ذو ماض مجيد ، له مستقبل باهر كذلك الذي ينتظر المكسيك او الجمهورية الارجنتينية . وأول سكة حديدية تصل اطرافه ، بعضهـــا ببعض ستعيد الحياة الى هذه المنطقة الفقيرة المهملة . وسوف تنهض بهذه الدولة الشرقية المعدمة من اللحد المهمل الذي اودعت فيه . ليس هناك اي حدود على الاطلاق يمكن ان يضعها اي انسان للذكاء الفطري عند ابناء هذه الأمة ولا لتطلعاتهم وطموحهم ولا لمقدراتهم الفكريه العالية . انهم افضل امة موهوبة رأيتها حتى الآن . وعندما ترتفع اللعنة عن هذه الدولة — لا لعنة التشاؤم والشعوذة والتخلف ، بل سم ووباء الحكم السيء — سوف تنهض ثانية الى تلك المراكز والمناصب العليا التي تلائم تلك الايام عندما اعطت هذه الامة للعالم ذلك الشعر الرائع والنظام الديني البديع القويم الذي مازال غير منسي عند اسمى الدول والحضارات اليوم .

كذلك كان ايمان برتون بهذه الامه وقدراتها على النجاح والتقدم . وهكذا كانت شهادة هذا الانسان الذي عرف العالم وشعوبه عن كثب على مدى اربعين عاما ، بمقومات هذه الامة ومزايا هذا الشعب العريق الفكرية . لقد عبر برتون عن رأيه بالشعب العربي عامة ، والسوري خاصة بصراحة ، كما عبر عن رأيه في الاسلام بالصراحة نفسها وبالتقدير نفسه وبسبب هذه الصراحة كسب برتون حقد ابناء امته وعداوتهم . فلقد عاش برتون في مجتمع كان الذين يكرهونه فيه اكثر بكثير من محبيه ، والسبب في ذلك كما عبر NORMAN PENZER مصنف اعمال برتون حين قال ان برتون « كان لا يهتم اطلاقا فيما اذا كان مدح اوذم من قبل افراد معينين او من قبل اجهزة الاعلام المتسلطة . ولم يقبل ولم يكن بامكانه ان ينحط ليماشي النزوات العابرة التي تجتاح المجتمع من حين الى آخر . او ان يتنازل باسلوبه ويكتب بالطريقة التي ترضي الجماهير ان لم يكن يرضى عنها هو بنفسه..... وبالمختصر كان برتون كاتباً رائعاً فذا . فلم يكن محرراً عاديا ولا قصصيا رخيصا ولا تاجر ادب يعمل من اجل الكسب المادي او الشهرة » . وفي كتاب آخر جمع فيه PENZER بعض اعمال برتون دون PENZER رأي البروفسور (سايس) في سبب معاداة الناس لبرتون وقلة شعبيته حيث قال :

> وكأي عبقري ، عاش برتون قبل وقته وعانى من ذلك كثيرًا . ونظرته العميقة في الحياة والمستقبل جعلته قادرًا على التوصل الى نتائج واحكام تتعارض مع الافكار السائدة آنذاك ولذلك كانت مرفوضة من قبل الجماهير. الى ان يصبح صاحبها منسيا متجاهلًا. لقد كان مستقلًا فكريًا بدرجة كبيرة تمنعه من ان يردد كلمات او يعكس افكار الآخرين ان بدت له انها تتعارض مع الحقيقة ، كما كان شريفاً لدرجة عظيمة كانت تمنعه من الصمت عندما كان يرى انه من الواجب عليه ان يتكلم .

هكذا كان برتون وهكذا كانت آراؤه بهذا الشعب ، الشعب العربي السوري العريق . وبسبب هذه الآراء عانى الكثير ولكن برتون اليوم هو رجل الساعة . فمنذ وائل الستينات بدأت بريطانيا تشعر بالخطأ الذي ارتكبته في حق هذا الانسان الفذ وبدأت تعطيه حقه الشرعي من الرعاية والدراسة والاهتمام. ولقد كان البحث الذي قدمته في رسالة الدكتوراه ، وهو دراسة تحليلية ادبية نقدية تقويمية لجميع اعمال برتون المتعلقة بالعرب والاسلام، الاول

من نوعه في الدراسات التي اجريت على هذا المستشرق ، اذ ان كل ما كتب عنه في الماضي لم يكن اكثر من سرد لقصة حياته ومغامراته وانجازاته الخارقة . وقد بلـغ عدد هذه الكتب ما ينوف عن الخمسة عشر .

هذه نظرة شاملة مختصرة عن هذ المستشرق الذي كرس حياته للعرب وربط اسمه بهم ارجو ان تكون قد اعطت فكرة كافية وواضحة عنه .